

تأويل شعبي للحلم تنبؤي

بقلم

محمد يوسف بروي

مدرس بطنيا الثانوية الحديثة

إذا حامت به (حرامى) . . . فسبحر لك ضيف !
وقفنا على حلم الخرافة الفاتمة أثناء اشتغاله بجمع أمثلة للتصير تمهيدا لوضع
اختبار له . واستلفت نظرا في هذه الخرافة أمران : أولهما ما فيها من رمزية
واضحة . وثانيهما القيمة التنبؤية التي يضيفها العامة على الحلم بالصر .
وليس يستغرب أن تحلم بالصوص إذا كانت سيرة اللصوص موضوعاً
للسمر أثناء السهرة . وبذلك يستمد الحلم مادته مما كان يشغل الذهن قبيل النوم .
وقد أدرك العامة ذلك بفطرتهم الصافية . فجاء في أمثلتهم : « اللي في بار أم
الخبر تحلم به بالليل . » وإنما وجه الغرابة في هذا الحلم (بالحرامى) هو التأويل
الشعبي له بأنه علامة على أن ضيفا أو ضيوفاً ستحضر من سفر .
وقد اشتهرت بعض الأحلام الفردية وتناقلها الكتاب ، لما تمتاز به من سهولة
في التفسير . ولا فيها من دلالة أو تعبير . فإني أنصار التحليل النفسي نسوق
هذا المثال الذي عثرنا عليه بين ظهرانينا . عسى أن يصادف تفسيرنا منهم قبولا .
وما يرفع من قيمة هذا الحلم الذي نحن بصدده . وما يمتاز به عن تلك الأحلام
الفردية . أنه ذائع الانتشار . وأنه يكون جزءاً من معتقدات العامة ومن تراثها
الميثولوجي الذي تناقلته على مر الأجيال . حتى ليعتبر الحلم وتفسيره ، من عداد
الأساطير الشعبية . وإذا ما أعدنا تفسير هذا الحلم في ضوء ما نعرفه من مبادئ
التحليل النفسي . وجدنا أن تفسيرنا يتشبه مع هذا التفسير الشعبي في ناحية .
ويختلف عنه في ناحية أخرى . يتفق معه في الرمزية ، ويختلف عنه في القيمة
التنبؤية .

أما فيما يتعلق بالردزية . فيلوح أن اختيارها في هذا التأويل الشعبي لم يأت وليد الصدفة العارضة . وإنما يبدو أن هنالك نوعاً من الحتمية أدت إلى هذا التفسير . ولا تعجب إذا وجدنا شبه إجماع بين المشتغلين بتحليل الأحلام على دلالة بعض الرموز . وإنما الذي يدعو إلى العجب هو انتشار هذه الخرافة الشعبية بدلالة هذا الحلم وبتفسيره على هذا النحو بالذات . ولكل حلم محتويات ظاهرة وأخرى كامنة . ولا نعرف بقية مضمون هذا الحلم ولا انصور والحوادث الأخرى المصاحبة له . لأننا لسنا بإزاء حلم مفصل . أو حلم فردي . وإنما نحن بإزاء أسطورة شعبية . والدوافع اللاشعورية والأفكار الكامنة للحلم باللص هي النزعات العدائية المكبوتة . وتكبت مثل هذه النزعات لأسباب عدة وفي مناسبات شتى قد يكون من بينها الضيف .

ويلوح أن الموقف بإزاء الضيف المقيم . موقف مزدوج متناقض ambivalent . فالمبالغة في إكرام الضيف وفي الحفاوة والترحيب به في الظاهر . قد تكون ستارا يحجب ما يضمرة اللاشعور من كراهية وحرص وأنانية . وهذه النزعات الأخيرة تميل إلى الكبت . ولا يجسر أحد على إظهارها . ونجد صعوبة ومقاومة حتى في التعبير عنها . فمن ذا الذي يجسر على القول بأنه في هم مقيم من الضيف المقيم ؟ أو أن الضيف سلبه في الواقع ما أنتمه عليه بدافع الظهور بمظهر الكرم . وكأنما الضيف لص وسارق ! وإذا عاف نقارئ نعت الضيف بهذه الصفات . وإذا أنكر في نفسه حرصه بإزاء الضيف أو استنكر من غيره كراهيته للضيف . فهذا دليل كاف على ميل هذه الصفات للكبت . وعلى أن المجتمع لا يقرها . وفي هذا الموقف المزدوج المتناقض بإزاء الضيف : تظهر الغيرية ، وتبطن الأنانية ؛ يبدو الإيثار . وتطوى الأثرة . يلوح الكرم والترحيب والتأهيل . ويكظم التفتير والمقت والكراهية . في الشعور الظاهر غيرية وإيثار وكرم وترحيب . وفي اللاشعور أنانية وأثرة وتفتير وكراهية . يكبت أحد قطبي الازدواج الذي لا يتفق مع آداب المجتمع وتقاليد ، أما القطب الآخر الذي يتماشى مع العرف والتقاليد فهو ما يبدو في الشعور الظاهر . فالترحيب والحفاوة والكرم من صفات النفس الشعورية . وفي أعماق النفس استقرت الكراهية وبالتالي الرغبة في التشنق ! وإذا كانت آداب المجتمع وتقاليد قد حالت دون الإفصاح عن هذه النزعات في

حالة النصحو . ففي النوم يتاح لنا ذلك - أثناء غفلة الرقيب - عن طريق الحلم . فالحلم (بالحرمان) هو تنفيس عن النزعات العدائية المحبسة التي كبتت حيال الضيف . فيظهر الضيف في الحلم بصورة تنكيرية رمزية هي صورة اللص بعد أن يقوم الرقيب بحيلة لأشعورية هي « عملية الإبدال Displacement » . يبدل الضيف باللص حتى توجد انفعالات الكراهية المنكبوتة ذات منصرفا . ولا نجد رقيب حرجا إذا نحن أفرغنا على اللص في الحلم نزعات المكب والكراهية . وبما أنه لص فلا بأس من أن نصب عليه في الحلم جام غضبنا . ولا بأس من أن نبدي حرصنا الشديد على ما نملك . وعلى ما يحاول اللص أن يفتصيه منا وفي مختلفه اختلاسا .

ويتوقف قبول هذا التفسير على مدى الاستعداد لتسلم بأن مثل هذا الموقف مزدهج المتناقض بإزاء الضيف محتمل أو ممكن . وتجد أنفسنا بإزاء الإنكار المتوقع - والاستنكار المتوقع كذلك ! - مضطرين إلى أن نسوق الأدلة التي تؤيد حقيقة الموقف حيال الضيف . وإذا كان هذا الحلم تعبيرا بصورة تنكيرية أو رمزية . فهو كذلك إفصاح عن مكونات اللاشعور بطريقة بادائية ساذجة تتفق مع النمط الذي تسيطر عليه الحياة النفسية للطبقات الفقيرة الرقيقة الحال وهم حفظة التراث الميثولوجي : وهذا التراث حافل بالمجالات التي تنفضح فيها الدوافع عن نفسها . فمن الأمثلة العامة (١) ما يعبر تعبيرا واضحا عن حقيقة هذا الموقف حيال الضيف . وكما أن الدوافع اللاشعورية تبدو في الأحلام (كما في الأسطورة الشعبية لهذا الحلم وتفسيره) وفي الأمثلة العامة . فكذلك تبدو في

(١) من ذلك قولهم : « أتايك يا حيف ما انتس صاحب محل » - ويضرب في أن الضيف غريب فلا ينبغي له الاغترار بالترحيب والتأهيل . وقولهم : « أدى وش الضيف » - أي هذا وجه الضيف الذي تبصرونه قد ذهب عنكم ولن يعود . وقولهم : « ليلتك سعيدة يا ضيف فل عليك وعلى أولادك » - أي أنه حيا ضيفه بذلك فقال : إنما هي سعيدة عليك وعلى أولادك لأنك ستشاركوني في معظم نساء . ومن ذلك قولهم أيضاً : « الضيف انعمى نغله ع الأرض » - لأنه متى كان قد نعمى فقد زال نغله عن أهل الدار ...

هذه الأمثلة والعينيات عليها مأخوذة عن كتاب : « الأمثال العامة » بقلم أحمد تيمور باشا - مطبعة الاستقامة ، بالقاهرة - سنة ١٩٤٩ .

الشعوذة^(١) وفي فلتات اللسان^(٢).

تتضح بجلاء مما سبق الدوافع اللاشعورية للحلم . والأفكار الكامنة خلفه . كما تتضح الحتمية السيكولوجية في اختيار الرمزية في هذا التفسير الشعبي . تبقى بعد ذلك القيمة التنبؤية التي يضئها الخرافيون من العامة على الحلم (بالخرامى) فيجعلونه نذيراً بحضور الضيف .

وحضور ضيف هو حادث خارجى ليس إلى التنبؤ به من سبيل . وإنما هو وليد المصادفة . أما الحلم (بالخرامى) فلم يكن وليد المصادفة . فقد رأينا دوافعه اللاشعورية . فعلى حين تبدو المصادفة الحقيقية في الأشياء والحوادث الخارجية كحضور ضيف . تبدو الحتمية في الدوافع الداخلية النفسية التي تؤدي إلى مثل هذا الحلم . وعلى ذلك لا يحضر انصيف لأننا حملنا بالخص . بل حملنا بالخص لأن ضيفاً قد حضر من قبل . فتحزن نفس الحلم على أساس أن دوافعه في الماضى . بينما تصبى العامة في تأويلها على الحلم دلالة تنبؤ بالمستقبل . فالفرق بين تفسيرنا السابق للحلم وتفسيره الشعبى هو أننا نقول : حضر لك ضيف فحلمت (بالخرامى) . أما الخرافيون من العامة فيقولون : إذا حلمت (بالخرامى) فسيحضر لك ضيف . هذه الدلالة التنبؤية يمكن تفسيرها في ضوء الشرطية .

(١) لعلك لم تسمع بعد شيئاً عن هذه الخرافة الغريبة . هي طريقة بصطنعياً بعض العامة مع الضيف إذا كان من النوع الثقيل . وهي قد اقترضت أو أخذت في الاقتراس . فإذا أحال الضيف الجلوس وبدأ وكأنه لا يتوى أن يصرف ، يتخذ أهل الدار حيلته لإجراءات (نعامة) تتخص فيما يأتي : (يقبل زوج من العال خلف باب المطبخ أو في أحد أركانها ، ويوضع فوقه مكنة ...) فلا يلت الضيف أن يتأذن منصرفاً ! ومن المرجح أن هذه الطريقة لا يقصد بها سوى التندر والدعابة . إذ لو أخذت مأخذ الحد لكانت نموذجاً يدايياً صارخاً لالتباس النتائج من غير أسبابها . فالنتيجة وهي انصراف الضيف يعتبر سببها هذه الشعوذة 'سادجة' ، وما هي بسبب . أما دلالتها الحقيقية فهي أنها تعبير رمزى حين يبالغ بأهل الدار الخليل بن الضيف الثقيل وانتم به إلى الحد الذى يقطون له ظهر المداس !

(٢) كذلك تكشف فلتات اللسان عن حقيقة ما في اللاشعور حيل الضيف . وإذا نحى الخرافات جانباً وتركناها العامة ، فلنستمع إلى واحد من ذوى الحياه مالمية هو أستاذنا الدكتور تقوصى . يذكر في مقال له بجريدة الأهرام بعنوان « الشعور بالذنب » « أتى » . « وأذكر أن شخصاً ثم أكن أحبه كثيراً زارنى في البيت فوجدت نفسى أبالع في إكرامه وأن تصرفتى لم تكن طبيعية هادئة . ولكن قلته من فلتات اللسان كشفت نفسى حين قلت له (فإنجان قبوة كمان) ف شعر بأنه أطلال الجلوس فاستأذن في الانصراف ف شعرت بما وقع منى من خطأ ، فأصرت على أن يجلس منى فترة أخرى ، وانتهت الزيارة بأن ودعته في أدب وذوق وبمعاملة خرجت كلها على الطبعى المؤلف » .

فالحلم حلم ليلة . على حين أن إقامة الضيف قد تستمر الأيام والليالي . واللاشعور لا يغفل وجه الشبه بين الضيف التثميل واللص ! كما أنه قد يتصادف حضور ضيف أو ضيوف بعد الحلم . وفي هذه الحالة - كما في الحالات الأخرى المنزومة أو القاهرة على التطير - يتعجب الخالم . وكأنما لسان حاله يقول : ما من مرة حلمت (بالخرامى) إلا وحضر بعدها ضيف . وهو لا يدري أن حلمه نتيجة لما كتبه حياض ضيف سابق . أما حضور الضيف بعد الحلم فصادفة لا أكثر . ويلوح أن تكرار اتفاق المصادفة بحضور الضيف عقب الحلم باللص يؤدي إلى أن يصبح اللص في الحلم رمزا مرتبطا بحضور ضيف . وعلامة تنذر بمقدمه . ومنها شرطياً يتوقع معه حضور ضيف . أي أن تكرار اتفاق المصادفة أو تكرار ارتباط الحلم باللص مع حضور ضيف . يؤدي إلى اكتساب نوع من الشرطية . يتوفر فيه الشرطان الأذان ذاب الكتاب على اختيارهما لارمين لتكوين الاستجابة المكتسبة الشرطية . وهذان الشرطان هما : الجزء من الموقف الذي يرمز إلى الموقف كله . والتكرار لتثبيت . ونضيف إلى هذين الشرطين شرطاً ثالثاً هو النزعات المكبوتة في اللاشعور . وهي التي تجعل للعناصر المرتبطة مغزى رمزياً أو مغزى لاشعوريا . كما أنه قد يكون اتفاق المصادفة بحضور ضيف بعد الحلم . باعنا إيجابيا هو بمثابة الجزاء . إذا أخذنا برأى ثورنديك Thorndike الفائل بأن طريقة المحاولة والخطأ من طرق اكتساب العادات . على هذا النحو - أو قريبا منه - قد يكون تفسير الأسطورة الشعبية القائلة بأن الحلم (بالخرامى) علامة على حضور ضيف .

وهكذا تتضح حتمية اختيار الرمزية في هذا التأويل الشعبي للحلم من ناحية . وحاجته إلى تفسير آخر علمي . ليفقده ما ينسب إليه من قيمة تنبؤية من ناحية أخرى . ومهما يكن من أمر . فهذا مجرد تفسير محتمل . حيث لا يوجد بعد تفسير آخر . وهو تفسير يستند إلى دعامين هامتين في علم النفس وهما : النزعات اللاشعورية لثرويد . والشرطية لياقوف . كما يتضح كذلك أن هذا المثال الخاص من أمثلة التطير ينطبق عليه ما سبق أن ذكرناه عن التطير بوجه عام . فقد سبق لنا أن تناولنا الدوافع اللاشعورية للتطير في تفسير فرويد له (١) . كذلك

حاولنا إثبات طريقة اكتساب التطير على أساس الفعل المنعكس الشرطي^(١). كما أفدنا من ضم هاتين الأداتين القويتين وهما : الشرطية واللوازم اللاشعورية إحداهما إلى الأخرى . وأخذنا بهما معاً في بحثنا لظاهرة السحر^(٢).
 أخيراً يلوح أن الحتمية السيكلوجية لا تقتصر على هذا التفسير الشعبي للحلم ورمزيته فحسب . وإنما تبدو هذه الحتمية كذلك في الحلم ذاته ! إنها أكثر من مصادفة أن تنتشر الأسطورة الشعبية لهذا الحلم وتفسيره بين أهل الشرق ! فالحلم (بالخراسي) يبدو متمشياً تماماً مع التقاليد الشرقية : فقد اشهر أهل الشرق بالكرم الخاتمي . وصارت حفاوتهم بالضيف مضرب الأمثال . فليس يستغرب أن نجد أهل الكرم نهباً لمثل هذه الأحلام .

نجيب يوسف بدوي

(١) « اختبار للتطير » في مجلة علم النفس عدد أكتوبر سنة ١٩٤٩ . مجلد ٥ .

(٢) « السحر » في مجلة علم النفس عدد يونيو سنة ١٩٥٠ . مجلد ٦ .